تحالف تركيا مع إسرائيل وأذربيجان: هوية الدولة والأمن في منطقة الشرق الأوسط والقوقاز

كتبه ألكسندر مورينسون

حرره: يعقوب فودكا

يستكشف ألكسندر مورينسون القوى الكامنة وراء تحالف تركيا مع إسرائيل وأذربيجان في هذا الكتاب الذي جاء في وقته. يضع مورينسون هذه البلدان الثلاثة بجانب بعضها البعض، ويصفها بأنها "محميات عسكرية، متشابهة، غربية، علمانية، ودول قومية دستوريًّا وموحدة أو وحدوية.» (ص143) تلك الملامح والصفات تصف وتصور هوية الدول الثلاث، التي قد تبدو ظاهريًّا أن لديها مصالح متضاربة في المنطقة الأوروآسيوية المضطربة، الممتدة من القوقاز وآسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط والبلقان. كل من الدول الثلاث فاعل فريد من نوعه في الساحة العالمية – تركيا ما بعد الإمبراطورية ذات توجه غربي، وذات طموحات عالمية، يحكمها حزب إسلامي، والدولة اليهودية محاطة بجيران عرب، والدولة السوفيتية سابقًا، الغنية بالنفط، تخضع لنظام حكم استبدادي. من ناحية، يحاول الكاتب فهم كيف أن الهويات المشتركة قادت الدول الثلاث إلى تشكيل هذا التحالف الغريب، ومن ناحية أخرى، يحاول فهم العوامل التي يمكن في واقع الأمر أن تقوض العلاقة الأمنية الآذرية التركية الإسرائيلية. وبعيدًا عن النهج الواقعي الجديد الأكثر كلاسيكية في العلاقات الدولية، حيث الدول المتجانسة – أو ما تسمى بكرات البلياردو – هي الجهات الفاعلة الوحيدة على المسرح العالمي، يلفت الكاتب الإنتباه إلى أهمية الهوية كقوة دافعة لسلوك الدول ولسياستها الخارجية. ثم يبحث الكاتب بعمق في أنسجة الدول الثلاث، على الصعيدين الإقليمي والعالمي، لمعرفة الأنماط والاتجاهات الجديدة في علاقات أنقرة مع إسرائيل وأذربيجان. "فلدى الدول الثلاث علاقات خاصة مع الدول الكبرى في العالم" (ص147)، وهناك ما يبرر بأن الولايات المتحدة هي "القدم الرابعة" لهذا المحور الثلاثي. فواشنطن تلعب دورًا رئيسًا في الشؤون الإقليمية، وتهتم بإقامة التعاون مع البلدان التي قد تكون قادرة على موازنة التحالف الإقليمي القائم بين روسيا وإيران وسوريا.

في كتابه، استخدم مورينسون إطارًا نظريًّا يجمع بين تركيب ثري متنوع ونهج جديد. وثمة جانب آخر يميز هذا الكتاب، وهو أنه يحلّل التقارب بين هذه البلدان الثلاثة، حيث إن "العلاقة الثلاثية" أو "المحور الثلاثي" يعتبر مفهومًا جديدًا في الأدب السياسي، فقد تعودنا أن ننظر إلى العلاقات الدولية من منظور ثنائي. وهكذا، فإن الكاتب محق بالقول إنه يقدم إضافة جديدة إلى "النقاش الدائر حول طبيعة تشكيل التحالف المتعدد الأطراف في عصر ما بعد الحرب الباردة." (ص6)

في الفصـول الثالـث والرابـع والخامـس، يبحـث الكاتـب التقـارب بين الدول الثلاث، مـع التركيز على البعـد الأمنـي للمحـور الثلاثـي، الـذي يسـميه قلب الوفـاق. ويؤكـد مورينسـون أنـه "لا يمكـن تحليـل المحـور الأذربيجـاني التركـي الإسرائيلي بشـكل كامل مـن دون معرفـة دور المؤسسـات العسـكرية والأمنية في التسـعينيات وأوائـل الألفـين" (ص42). ويـرى مورينسـون أن هـذا "المحـور خـرج الى حيـز الوجود بسـبب العديد من التهديدات الاسـتراتيجية وتداخل مصالـح الـدول الثـلاث" (ص94). عمومًا تم بحث دور جهاز الأمن العسـكري على نطاق واسـع في تركيا وإسرائيل، وبشـكل أقل في أذربيجان في أعمال أخرى، أمـا الفصل الثالـث فيمهد الطريق لمزيد مـن التحليل. ومن أهم نقاط قوة هذا العمل هو أن الكاتب لا يقتصر على تحليل مؤسسات الدولة فقط. ففي الفصل الرابع، يتوسـع الكاتب في تحليله من خلال دراسـة الشـبكات غير الرسـمية للمحـور، مؤكدًا دور مجتمعـات المعرفة –"مزيج من الشـبكات الفكرية والسياسية" (ص63) التـي تؤثر في السياسـة الخارجية والدولية بشـكل غير مبـاشر. ويبحـث الكاتـب الـدور الواضـح للجاليـة اليهوديـة الأمريكية في تدعيم العلاقة الثلاثية، جنبًا إلى جنب مـع مراكز التفكير والدراسـات والشركات عبر الوطنيـة المهتمـة بدفـع عجلـة التعاون في مجـال الطاقة بـين البلـدان الثلاثة. ويشـير إلى أنه "عـلى النقيض من الولايـات المتحـدة، حيـث أوضحـت مراكـز التفكير والدراسـات موقفهـا في العمليـة السياسـية منـذ بداية القـرن العشرين، يلاحظ أنه في الـدول الثلاث لا تزال مراكز التفكير والدراسات وغيرها من مراكز الأبحاث المستقلة تعنى بالمستجدات التي ما زالت قيد البحث". (ص82)

يغطـي الكتـاب الفـترة ما بـين عـام 1992، العام الـذي حصلت فيه أذربيجان على إسـتقلالها بعد إنهيار الاتحاد السـوفيتي وعام 2005، الوقت الذي عزز فيه حـزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا من مكانته. كما أن التغيـيرات التي طرأت بعد إنهيار الكتلة الشـيوعية وإنتهاء الثنائية القطبية في النظام العالمي، أطلقت العنان لفرص جديـدة للبلدان التي لم تعـد مقيدة بمواجهات الحـرب البـاردة والأدوار الجيوسياسـية المفروضـة مـن أعـلى إلى أسـفل. في الوقـت ذاتـه، أثـارت الثورة الجيوسياسـية تهديدات جديدة، مثل المشكلة الكردية، وتصاعـد الراديكاليـة الإسـلامية، والتهديـدات التي تشـكلها سـوريا وإيران، والتي كان ينظر إليها على أنها تهديـدات مشـتركة للدول الثـلاث فوطـدت تحالفها. ومـع ذلـك، فقـد ضاعت مـن الكاتـب فرصـة جيدة لبحث تطـورات ما قبل عـام 2005، والتي أسـفرت عـن فتـور العلاقـات بـين تركيـا وإسرائيـل. عمومًـا الكاتـب محق عندمـا أشـار، في الصفحـات الأولى من كتابه، إلى أن الوفاق "عرضة لتقلبات السياسة الداخلية والتحولات في حسابات السياسة الخارجية لأعضائه" (ص2)، مؤكـدًا "الطبيعـة السـائلة للبيئـة الدوليـة" (ص8). فقـد كشـفت التطورات في السـنوات القليلة الماضيـة عـن تدهـور العلاقـات التركيـة الإسرائيلية، وكذلـك فتور العلاقات بـين أنقرة وباكـو ولو بدرجة أقل، وهو ما يدل على تبخر التحالف الثلاثي. التحول في العلاقات التركية الإيرانية (توسـط تركيا والبرازيل في إتفاق مبادلة الوقود النووي الذي تم رفضه من قبل القـوى الغربيـة)، والتقارب مع سـوريا، والمحاولات المبذولـة لتطبيـع العلاقات مـع العدو اللـدود أرمينيا، أوضحـت جميعها عدم جـدوى ذلـك التحالف. يرى الكاتـب أنه، "نتيجة للتغيرات العميقة على السـاحتين المحلية والدوليـة في الفترة بين عامي 1999 و2005، حدث ارتداد للمحور الثلاثي. وبعبارة أخرى، أصبح

المحور يتعرض بشكل متزايد للاضطرابات والتقلبات في السياسة الداخلية للدول الثلاث".(ص115)

أحد الانتقادات الرئيسة التي يمكن أن تُوجَّه الى هذا الكتاب هو أن الكاتب لم يستفد من الأدب التركي بما فيه الكفاية (وخصوصًا الصحف التركية، التي تعد مصدرًا قيمًا للمعلومات الإضافية، ولا سيما أن الصحافة تعكس مدى تقبل الشعب للتقارب التركي الإسرائيلي).

على الرغم من الأخطاء الصغيرة الأخرى (تم التصديق على الدستور التركي في عام 1982، وليس قبل عام، ص 32، ولم يشغل رئيس هيئة الأركان في تركيا منصب الأمين العام لمجلس الأمن الوطني كما يقول جاريث جنكينز والتي نقلها عنه ألكسندر مورينسون (ص157). عمومًا يعد عمل مورينسون إضافة قيمة للدراسات الموجودة حاليًّا، (المتنامية بشكل كبير في السنوات الأخيرة) حول تركيا الحديثة والتكتلات الاستراتيجية، والجيوسياسية، والعسكرية الناشئة في الشرق الأوسط والقوقاز. علاوة على ذلك، فإن الكتاب بشكل عام، لا يعد فقط مصدرًا قيمًا للحقائق المبهمة للعلماء والباحثين الذين يدرسون تركيا الحديثة والتطورات الإقليمية، بل إنه أيضًا عمل ملهم يساعد القراء على فهم السياسة الدولية من زاوية نظرية مختلفة.